شريعة الحب
هؤلاء ياسادة . . .
إيمان مرسى

إيمان مرسي – شريعة الحب

إيمان أحمد محمد مرسي ، من مواليد ١٩٩٢ .
محافظة القاهرة .
ليسانس كلية دار العلوم .
معلمة لغة عربية .
للتواصل :
facebook.com/eman.morsy.9216

الإهداء ...

إلى أسرتي وأصدقائي .. إلى كل من له حلم .. إلى كل من يفتقد الأمان .. إليكم جميعًا أعزائي أهدي كلماتي !

شريعة الحب

- أصبحت لا أتحمل هذه الحياة ورغم أني فكرت في الانتحار أكثر من مرة منذ أن وجدت التغير الكبير في بني آدم إلا إنني أصبحت أرى الانتحار مزحة ، فأنا مِتُّ بالفعل ، مِتُّ منذ زمن بعيد لم أعد في هذه الحياة لأتركها ، لقد أصبح دفني مجرد إجراء روتيني يجب أن يحدث لا أكثر ولا أقل .

دعوت الله أن يأتي اليوم الذي تدفن فيه هذه الجثة العَفِنَة منذ سنوات طوال لكي ترتاح ، فكلنا نعلم أن "إكرام الميت دفنه" !

في هذه اللحظة الفارقة في حياتها ، وهي تكتب أولى كلمات مذكراتها رن جرس الباب ، بعد كل هذه المدة يرن جرس الباب بعد أن تركها العالم لسنوات كثيرة بمفردها لتستيقظ كل يوم لعل أحد يزورها ، لعلهم يشعرون بأنها موجودة ...

قالت في دهشة :

- أستاذ عامر ؟!
- ألن تأذني لي بالدخول ؟

- تفضل ..
- أنا اتيت اليوم لخبر سيدخل عليك السرور ، عندي عمل مهم جدًا هذه الأيام ، وسأحتاج مساعدتك في أن تكوني بطلة ثانية للعمل ، ولن تصدقي .. هذا العمل ليس مسلسل أو فيلم بل هو عمل مسرحي .

نظرت له في اقتضاب قائلة :

- بعد هذه السنوات التي أعطيتكم فيها شبابي ، وأفنيت عمري من أجلكم ستجعلني أقوم بدور صغير وعلى خشبة المسرح أمام جمهوري الذي لا يراني سوى بطلة !
أتعتقد أنني مِتُّ بذاكرتهم ؟! أنا لم أمت ، أنا حية وأعمالي في قلوبهم فإن نسوني بعض شيءٍ سيتذكرونني دومًا ، أتفهم ... سيتذكرونني دومًا !
- ومن قال أنه دور صغير سيدتي بل سيكون أهم دور في حياتك ، وأهم دور في أعمالي .
- دور البطلة ، أريد أن أكون البطلة ، لا يوجد شيء اسمه بطلة ثانية .
- سيدتي ، هذا دور مهم ويناسبك ، وأنا بحاجة إلى مساعدتك .
- إذن ، اترك لي الأوراق كلها لأقرأها وأرى بنفسي أهمية العمل .

- أرجو أن تردي عليَّ في أسرع وقت لنبدء بروفات العمل .

ودّعها وتركها في حيرة من أمرها ، فاتجهت إلى المطبخ وصنعت فنجانًا من القهوة ، وقررت أن تثبت للجميع أن صحتها على ما يرام ، وأنها ما زالت قادرة على أن تقرأ عملًا كاملًا في يوم واحد ، وتحفظ دورها بل وتحفظ بعض الأدوار والمشاهد التي تعجبها مثلما كانت تفعل في شبابها .

مرت ثلاثة أيام بعد قراءتها للعمل ، أدركت لماذا أُختيرت لهذا العمل ، قالت في نفسها :

- إنهم يحتاجون إلى امرأة مثلي في شيخوختها لتقنع الجماهير بموت الضحية ، ضحيتهم يجب أن تكون في شيخوختها ، في مقابل بطلة العمل التي تبدو ملكة في عز شبابها ، ليصرخ الناس في نوع من الشفقة ... "اتركوها تعيش ، لا تقتلوها ، إنها امرأة مسنة".

قالت الجملة الأخيرة بصوت مرتفع ثم ضحكت ضحكة عالية لا تخلو من مرارة . تحدت كبرياءَها واتصلت بالمخرج دون تحية قائلة :

- لقد وافقت على الدور ، متى سنبدأ ؟

- في الأسبوع القادم أولى البروفات ، أعلم أنك ستكونين أول الملتزمين .

أغلقت الخط دون أي تعليق ، وأخذت تحضر لدور حياتها .

دخلت حجرتها لتمثل الدور أمام المرآة كعادتها وتبتسم في النهاية وتصفق لنفسها ، ولكن هذه المرة لم تبتسم ولم تصفق بل سقطت في بكاء شديد ، بكت عندما وجدت التجاعيد تملأ وجهها ، ونظرت إلى بقايا جمالها البالي لكنها لمست شيئًا لم تدركه يومًا قائلة للمرآة لتتحداها :

- أنا ما زلت جميلة ، ما زلت أجمل ما في الكون ، لا تنظري إلى وجهي هكذا في سخرية ، انظري إلى قلبي ، ستجدي جمالي !

دخلت المسرح تائهة حائرة ، نظرت في كل مكان وفي كل زاوية وعلى وجهها ابتسامة قائلة لنفسها :

- بعد كل هذه السنوات ، لقد أتيت اليوم إليك يا أغلى مكان إلى قلبي ، يا حب عمري ، هنا بدأ عمري وهنا سينتهي ....

ثم جاء إليها المخرج ليريها حجرة ملابسها .. دخلت الحجرة فوقع على قلبها حزن شديد من منظر الحجرة

التي خصصت لها ، تأكدت من أنهم يريدون أن يقولوا شيئًا واحدًا "أنتِ ليس لكِ وجود ، لقد تبدل العالم ، وتبدلت ملامحك ، ولم تظلي بطلة هذه الأيام" !

وجد المخرج علامات الضيق على وجهها ، فاعتذر منها وقال إن كل الحجرات بهذا الشكل بل وأكد لها أنها أفضلهم ، فاستأذنته بأن يخرج ويغلق الباب لتجهز نفسها .

بعد عدة شهور كان المسرح في توتر غير طبيعي ، فاليوم سيجنون بذرة تعبهم وسهرهم في ليالٍ طوال ، اليوم ينتظر كل من في المسرح النجاح المنشود للمسرحية ، بداية من المخرج والبطلة إلى أصغر عامل في المسرح .

بدأت المسرحية ، وبعد عدة مشاهد كان المسرح يهتز بالتصفيق ، دخلت لتمثل المشهد الوحيد لها أمام البطلة.

البطلة :

- يجب أن تموتي ، باسمك ارتكبت الكثير من الجرائم ، باسمك استشهدت الكثير من القلوب ، أنت خُدعة ليس لكِ وجود .

ثم أخذت البطلة تضحك بطريقة ساخرة شريرة ، فجاء دورها :

- لست أنا من يجب أن يموت بل أنتِ أيها المخادعة الكاذبة ، أنت من دمرتِ العالم ، أنتِ وهؤلاء .

ثم استدركت خارجة عن النص وأشارت إلى المخرج والمؤلف الواقفين خلف الستار :

- هؤلاء هم من قتلوني بمؤلفاتهم وأعمالهم التي تظهرني خائنة خادعة كاذبة ترتكب الجرائم البشعة باسمي ، فأنا أسمى وأطهر مما تدعون ، لقد شُرعت في جميع الأديان ، وخُلقت في كل القلوب منذ ولادتها ليحيا جميع الناس في سعادة .. لماذا تريدون قتلي ؟! لماذا ترتكبون الأخطاء باسمي ؟

وجهت كلماتها إلى الجمهور :

- حافظوا على بقائي بينكم ....
- أغلق الستار، ما الذي تقوله هذه المرأة العجوز !

وبعد غلق الستار ، وقف الناس يصفقون ويهللون من هذه النهاية المؤثرة ، ووسط دهشة المخرج والمؤلف سقطت لتذهب إلى مثواها الأخير ، تاركة بقايا كلماتها في القلوب ....

هؤلاء يا سادة

أخذ شنطته المليئة بالسجائر والولاعات كعادته كل يوم وخرج من بين أكياس القمامة التي يفترشها لينام عليها حين ينزل عليه الليل بسواده القاتم الموحش . يتخذ من القطط والكلاب أصدقاء له ، ومن القمامة طعامًا وفراشًا وملبسًا .

كان له شعر أصفر مائل للبني ، وعيون خضراء إذا نظرت إليهم تجد طفولة بالية تشبه تمامًا ثيابه البالية ، يرتدي بنطلونًا لا تستطيع تحديد لونه فهو أسود مجرد من معنى السواد ممزق الجيوب ممزق عند الركبتين ، وقميصًا لا يستر بقدر ما يفضح جسده النحيف ، بشرته بيضاء تحولت إلى اللون البني بفعل الشمس وعدم تعرضها للماء منذ أن عرفت الحياة .

خرج متحديًا فطرته وطفولته ليتجول في الشوارع لأجل الحصول على المال . أكثر ماله لا يحصل عليه من بيعه للسجائر والولاعات ، إنما يحصل عليه من النظرات المشفقة عليه العاجزة ، وقد ساعده في ذلك جماله الذي يشبه الجمال الغربي ، جماله المختبئ تحت الأوساخ ، جماله الذي لا يعلم مِن مَن ورثه !

ولد في هذه الخرابة أو تلك ، ربما والداه حصلا على قدر من الجمال مثله ، لا أحد يعلم حتى هو .

رآه أحد تجار الطفولة وتعهده بالتربية ، وعندما وصل لسن العمل اشترى له السجائر والولاعات وعلمه كيف يمكنه دخول القلوب .. لسلب ما في الجيوب !
هو لا يحتاج إلى هذا ، فهو بالفعل يدخل قلوب من رآه تصنعًا أحيانًا وحقيقة في أحيان أخرى ...

بينما كان يقترب من الجزء الأكبر من منطقة الأسواق أخذ يصفر لحنًا راقصًا ، وعند رؤيته طفلًا من بين أطفال يلعبون بالكرة يجري فرحًا ، تيقظت مرة أخرى طفولته ليسدد أحد الركلات برجليه النحيفة ويلهو معهم بضع دقائق ، ثم يتركهم ويقتل بداخله الطفولة مرة أخرى ويأخذه طريقه للعمل الذي اعتاده كل يوم .

وبعد أن يتجول هنا وهناك ، يقف عند هذا يتوسل إليه للمال ، وعند ذاك الذي يأكل ليعطيه مما يأكل ، وعند هذه الفتاة وتلك ليستميل قلبها لياخذ بعض الحلوى ، وهكذا ... وعند رؤيته أحد محلات لعب الأطفال فإن ذلك كفيل بإيقاظ طفولته مرة أخرى .
يحملق إلى اللعب التي طالما تمنى أن تكون إحداها ملكه ، يضعها في أحضانه حتى لا يراه أحد العيال فيأخذها منه ، ينظر إلى اللعب مبتسمًا كأنه يعِدُها بأنه يومًا ما ستنشأ قصة حب بينه وبين إحداها ويخلصها

من هذه الفاترينات ، ليأخذها معه ويتعهدها بالتربية والرعاية والحنان !

وفجأة تمتد يد صاحب المحل ممسكًا كتفه لينهره قائلًا :

- يلا يا حبيبي من هنا .

ينظر إليه نظرات سخط ، وكبرياء ، واعتزاز بالنفس لا تتفق مع سنه ثم ينهره هو الآخر ليرمي بيده بعيدًا ويتجه في طريقه غير مبالٍ .

في أحد المقرات المنصوبة لإحدى الأنشطة الطلابية في جامعة القاهرة يقف الطلبة يدفعون بعض الجنيهات ويملؤون الاستمارات لعمل تيشرتات خاصة بالنشاط المقام ، وتحديد موعد للمقابلة .

جاء في الموعد المحدد بعد اتصال أحد المسؤولين بالنشاط ، وتحديد الموعد وبعد الاستفسار عن الاسم والكلية وبعد أسئلة أخرى ، وجه إليه ثلاثة اختيارات ليختار النشاط الذي يفضل الالتحاق به : (قمامة ، حلمك ، أطفال الشوارع) وشرح له ما يتضمنه كل نشاط ، فاختار خالد أطفال الشوارع ، وعلى هذا الاختيار حدد معه موعد المحاضرات ومكانها الذي كان قاعات الامتحانات بجامعة القاهرة .

كان خالد حسن طالبًا في المرحلة الأولى بكلية العلوم ، متوسط الحال ، يعيش مع ولدته التي تحملت المسؤولية كاملة بعد موت والده ، وربته هو وأخاه تربية دينية ، وأغدقت عليهما الأموال لتعليمهما حتى وصل هو إلى الجامعة وأخوه إلى الثانوية العامة .

بعد مرور شهر كامل في المحاضرات ودراسة بعض الدروس الخاصة بالتنمية البشرية ، حدد موعد البحث الميداني للطلاب للحصول على شهادة باجتياز النشاط ، وكانت آخر محاضرة هي التي تلقى فيها كيفية التعامل مع هؤلاء الأطفال وكيفية ملء استبيانات لأراء العامة والطلاب حول هذه الظاهرة المتفشية في المجتمع ، وكيفية حلها .

كان المحاضر يلقي بكلماته ، وخالد يدون بعض الملاحظات ، أوقفت خالد كلمات المحاضر حين قال :

- يجب علينا أن نعامل هؤلاء الأطفال بلطف ، وأن نشعرهم بأنهم مثلنا تماما .

قال في نفسه :

- كيف نعاملهم كأنهم مثلنا ؟! لو صدقنا نحن أنهم مثلنا ، فإنهم لن يصدقوا هذه الخُدعة !

دوَّن خالد ملاحظات كثيرة حول كيفية التعامل مع هؤلاء الأطفال لتساعده في عمله .

قسم الطلاب إلى مجموعات صغيرة ، كل مجموعة عليها شخص يدعى "رائد" وشخص آخر يدعى "مساعد رائد" لنزول الشوارع لعمل الاستبيانات ، وكان خالد رائد إحدى المجموعات ، ومنذ أن التحق بهذا النشاط وهو يسأل نفسه : وماذا نحن فاعلون بكل هذا ، هل سنغير نحن الطلاب شيئًا ؟!

وبالطبع لم يجد إجابة لمثل هذه الأسئلة ، وفي هذا اليوم بالتحديد نزل خالد ومعه فريق العمل وقاموا بالتجول في الشوارع ، لملء الاستبيانات وتوجيه بعض الأسئلة للناس ، فمنهم من استهزأ بهم ، ومنهم من تركهم دون رد ليذهب في طريقه غير مبالٍ ، وبعضهم لم يفهم ليبدأ باستجوابهم عما يفعله ، وبعد فرٍّ وكرٍّ يملأ الاستمارة في شيء من التردد ، وفي مقابل هؤلاء وجدوا المثقفين الذين عاونوهم ، وأيضا بعض المتحزلقين المتفلسفين ، ففي الشارع تجد كل ما لذَّ وطاب .

وجاء العمل الأصعب وهو التحدث إلى أطفال الشوارع وأخذ أحاديث مسجلة منهم دون أن يدروا .

خرج كعادته كل يوم ومعه بضاعته التي لا يكاد يباع منها شيء فهي هي عادته . كان متعبًا جدًا من علقة ليلة أمس من رئيسه لأنه لم يحصد إلا أموالًا قليلة ، فأخذ عهدًا على نفسه بألا توقظ طفولته هذا اليوم ، فلا لعب ولا لهو بل سيفرغ وقته كله للعمل والحصول على الأموال .

اشمأز معظم الطلاب من هؤلاء الأطفال الذين لا تكف ألسنتهم عن السباب والشتائم إذا استفزهم أحدهم بالتهجم على حياته الخاصة التي يدرون كيف يحصنونها ، ولا يخبرون أحدًا عنها ، وكان الأطفال يعرفونهم جيدًا فقد اعتادوا على مثل هؤلاء ، ففي كل عام مع بداية الدراسة وبداية الأنشطة الطلابية ينزل الطلاب في الشوارع لياخذوا بعض الأحاديث منهم ، ويلبسون مثل هذه التيشرتات مع اختلاف ألوانها وأشكالها حسب النشاط ، ويعلم الأطفال جيدًا أنهم لن يستفيدوا من هؤلاء في شيء إلا الحلوى التي يأتون بها من أجلهم ، واعتادوا كيفية التعامل معهم ، واستغفالهم في بعض الأحيان دون أن يأخذوا منهم "حق ولا باطل" !

لكنه كان جديدًا في العمل والتجول ، لم يعتَد هؤلاء الأشخاص مثل معظم الأطفال ، فسنه لم يتعدَّ الخامسة ، عندما اصطدم به خالد وجد فيه بعض الطفولة وأيضًا

الكثير من الجمال المخبئ تحت هذه الأتربة والأوساخ والملابس البالية .

أمسك به خالد من يده الصغيرة المتسخة وابتسم له ابتسامة وُدٍّ ، وُدٍّ حقيقي نابع من قلبه ، لا يخلو من شفقة بهذا الجسد النحيل الذي إذا ضغط عليه أكثر من ذلك لتهشم !

نظر إلى عيونه الخضراء المحملة بسؤال لا يعرف لسانه كيف ينطقه "ماذا تريد" ؟!
أعطى له بعض الحلوى ، أخذها وقضمها في استمتاع شديد غير مبالٍ بمن يكون هذا الكائن وماذا يريد .. سأله خالد عن اسمه ، فلم يرد عليه واكتفى بتسديد نظرة دهشة إليه وهو يقضم الحلوى بنفس درجة الاستمتاع ، فاستدرك خالد :

- من الذى ابتاع لك هذه السجائر ؟

لم يقل شيئًا وظلَّ صامتًا يتلذذ الحلوى في هدوء لا يخلو من خوف من هذا الكائن الذي يجهل لماذا يستجوبه هكذا .

- قل لي أين تعيش ومع من ؟ وأين المكان الذي يتجمع فيه أصحابك من الأطفال ؟

ازداد خوفه ، لا يعرف كيف يرد وماذا يفعل ، تخلص من قبضة خالد ورجع للوراء ، تبدلت خطواته إلى عدو سريع نحو الناحية الأخرى ليعبر الطريق تخلصًا من هذا الكائن الفضولي . أخذ يجري مسرعًا ، وفي هذه الأثناء جاءت سيارة نقل كبيرة لتقتل هذه البراءة للأبد .

استيقظ خالد ليجد نفسه في المستشفى ، لقد فقد توازنه من هول الصدمة ، سئل نفسه :

- هل أنا السبب في موت هذا الطفل أم لا ؟ وإن كانت الإجابة لا ، فمن السبب ؟ لم يسعفه عقله للإجابة .. رجع في غيبوبته مرة أخرى .